الجزء الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

بين جان جاك روسو

وأسقف باريس*

١

كان ظهور كتاب التربية بعد الهلويز والعقد الاجتماعى بدء متاعب روسو . فقد صدر قرار من برلمان باريس بالقبض عليه فى ٩ يونيو سنة ١٧٦٢ وصدر قرار من حكومة جنيف بالقبض عليه أيضاً فى ١٨ يونيو . وأنكر السوربون المؤلف على أثر ذلك . ثم طعن عليه المسيو دوبومون أسقف باريس بمنشور أذاعه فى ٢٠ أغسطس . وطعنه قرار من البابا . وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولاندا . واضطرته هذه المطاردة من كل جانب للارتحال إلى سويسرا ثم إلى إنجلترا ثم إلى فرنسا . وكان لا يكاد ينزل بأرض يحسب أنه فى حل من المقام بها حتى يصدر إليه الأمر بمغادرتها . وكان لا يكاد يصل بينه وبين رجل بصداقة حتى يضطر إلى إنكارها . وظل ذلك شأنه بقية أيامه . اجتمع عليه المرض والمطاردة وإنكاره الناس وإنكار الناس إياه . واجتمع ذلك كله عليه فى أقسى مظاهره وأشد صوره . ومع ذلك ظل نشاطه الفكرى والأدبى متدفقاً تياره . فكتب يرد على منشور

(*) « يعلم القراء أن المؤلف قد نشر جزأين من هذا الكتاب وأن آخر فصل فى الجزء الثانى تناول بحث كتاب روسو عن التربية ، وفى هذا الكتاب الذى هو أكبر كتب روسو وأعمقها بحثاً وتفكيراً عرض المؤلف للعقيدة الدينية المسيحية وانتهى إلى تقرير ما سماه الديانة الطبيعية ، وجاء بذلك على لسان « قسيس السافوا » . وقد أحدث ما كتبه من ذلك ضجة كبرى انتهت إلى إصدار برلمان باريس ، الذى كان يقوم بأمر القضاء فيها ، امراً بالقبض عليه . وعلى أثر ذلك فر روسو من باريس وظل متجولا بقية حياته إلى أن أصدرت الهيئات القضائية والسياسية الأخرى قرارات بعدم قبوله فى أراضيها . ومما طعن به روسو فى هذا الظرف منشور أذاعه أسقف باريس المسيو كريستوف دوبومون . وبالرغم من أن روسو لم يتحرك للرد على كثيرين ممن طعنوا عليه فقد رد على الأسقف بخطاب مطول يقع فى نحو ٢٠٠ صفحة . والمنشور والخطاب آيتان فى القوة والبلاغة . وهذا الفصل من كتاب « جان جاك روسو : حياته وكتبه » متعلق بمنشور الأسقف وخطاب روسو (من السياسة الأسبوعية فى ١٠ فبراير سنة ١٩٢٧) .

أسقف باريس وعلى قرار حكومة جنيف . ثم كتب الحوار يدافع فيه عن نفسه ثم كتب « الاعترافات » . . و« أحلام المتنزه المنفرد » . .وكان خلال ذلك كله لا يضن بمكاتبة الكثيرين ممن آمنوا بآرائه وقدسوا شخصه ، وزادهم ما حل به من ظلم إيماناً وتقديساً . وهذه الرسائل والأحلام والاعترافات والحوار وخطابات الجبل والرد على أسقف باريس يستغرق آلاف الصحف . وله من جمال الأسلوب وروعته ومن دقة التفكير وسعة الأفق حظ عظيم .

وما كان روسو لينتج هذه الثمرات الشهية العظيمة القدر لو أنه لم يطارد ولم يشعر إلى أعمق غور نفسه بظلم أهل عصره . وما كانت روحه لترفرف على الثورة الفرنسية وتغذوها بكل ما غذتها به من حياة لو أن أهل عصره كانوا أكثر تسامحاً وعدلا . لكن الظلم يحمل فى طياته جراثيم موته . وحياة الوجود تنتقم لنفسها من كل من يطمع فى البغى عليها . ونوابغ الرجال أعلام الهدى هم أداة هذا الانتقام . لأن نفوسهم المملوءة بمعنى العدل تظهر الظلم أمام الناس فى أبشع صوره فيستفز فى قرارة نفوسهم ذلك القبس من نور الحق ، إن أخفته مصالح العيش حيناً فإنها لن تستطيع القضاء عليه ولن تستطيع قتله .

على أن ظلم الإنسان للإنسان هو أبداً تافه ككل شئون الإنسان . والأسباب التى تؤدى إليه أدنأ منه وأتفه . فماذا يبغى الظالمون من ظلمهم غير المتاع من مصالح العيش بالبسطة فى الرزق والجاه . وما بسطة رزق العيش وجاهه إلى جانب عظمة الحياة ومجدها . أليست تافهة فى كمها تفاهة الفرد منا إلى جانب الوجود العظيم . مع ذلك فهى التى تحرك الأكابر وذوى السلطان وتوجههم فى أعمالهم وتعبد لهم سبلهم وتدفعهم للمحافظة بكل ما لديهم من الوسائل على النظام القائم الذى يمكن لهم من هذه البسطة ولمحاربة كل جديد يخشى منه عليها .

وهذا ما دعا كل أولئك الذين حاربوا روسو لمحاربته وما دفعهم للتألب عليه ومطاردته وهذا هو ما استثار الجيل الذى جاء بعدهم للاعتراف بفضله وإقرار مجده .

وليس يدلك على ذلك أكثر من أنك لا تجد من خصوم روسو من يؤنبه على خطأ جوهرى من أخطائه التى نراها اليوم ونلمسها ونسخر منها وتبلغ بنا الدهشة كيف وقع فيها . لكنك تراهم يحاربون من آرائه ما يحسبونه مهدداً للنظام القائم أو منبهاً إلى ما فيه من فساد وضعف .

لذلك كانت الحرب بينه وبينهم على أشدها بعد ظهور كتاب التربية مشتملا تعاليم قسيس السافوا . ولذلك كانت هذه التعاليم أساس الحرب بين الفريقين ، فقد هدم روسو قاعدة الكثلكة حين أنكر سلطان الكنيسة ، واستخف بالمعجزات وأباح الاجتهاد بأوسع معانيه . وهدم مكانة رجال الدين حين دعا إلى التسامح ، فأقر للأديان جميعاً مكانتها السامية واعترف للأنبياء جميعاً بالعظمة والقداسة واعتدى على مصالح أهل العصر حين أبان فساد التربية التى ينشأ الأبناء عليها . ثم هو لم يكتف بنقد الحاضر وإنكاره بل تخطى ذلك إلى وضع دين جديد هو الدين الطبيعى ، ونظام جديد هو نظام الجمهورية ، وإلى دعوة الناس لاتباع دينه ونظامه بحرارة وقوة يمكن أن تتحرك لها قلوب الناس . ولم ينكر برلمان باريس فى قراره ولا أسقف باريس فى منشوره أن ذنب روسو عندهم خروجه فيما كتب على النظام القائم ودعوة الناس إلى الخروج عليه . ذلك أن للنظام القائم فى كل جيل مكانته عند أهل هذا الجيل ، ومهما يكن فيه من فساد ومهما يعترف كل إنسان بهذا الفساد فهو عند الناس جميعاً بمثابة السياج الواقى للحياة الاجتماعية من الانهيار . وليس على أحد بأس من الدعوة لإصلاح ما فى هذا السياج من فساد فى رفق وتؤدة وليس على أحد بأس من التعرض للإبانة عن هذا الفساد ولو كان ذلك فى غلو وتطرف . فأما الطعن على أسس هذا النظام والدعوة لنقضها والخروج عليها فتلك هى الثورة التى يخشاها الناس أشد خشية ويقفون فى وجهها بكل ما أوتوا من قوة .

هذا هو ما يدفع بعض الكتاب للدفاع عن قرار برلمان باريس ومنشور الأسقف . فقد اعتبرت المملكة الفرنسية من عهد لويس الرابع عشر نفسها حارس المذهب الكاثوليكى . ورأت لذلك ألا يكون فى المملكة إلا مذهب واحد كما أنها ليس فيها إلا قانون واحد وملك واحد وسبيل واحدة لعبادة الله هى السبيل التى يسلكها الملك . وهذه الفكرة ، فكرة وجوب وحدة العقيدة لقيام الوحدة القومية ، هى التى كانت تجعل من كل مفكر حر ومن كل بروتستانتى ومن كل شخص غير كاثوليكى خارجاً على الدولة . فكان طبيعيًّا إذن أن تحارب الحكومة القائمة هؤلاء الخوارج لتحفظ على الدولة أمنها ونظامها . والمحافظة على الدين فى مقدمة ما يجب عند أهل ذلك العصر للمحافظة على النظام

والأمن . وما دام روسو قد عرّض النظام والدين للشبهات فمن حق برلمان باريس – وهو سلطة ذلك العصر القضائية – أن يأمر بالقبض عليه .

على أن برلمان باريس لم ينس حين أصدر قراره أن روسو كان برغم طعنه على النظام الدينى القائم وبرغم دعوته إلى نظام اجتماعى جديد ، مؤمناً ثابت الإيمان ، وأن جماعة الفلاسفة من معاصريه كانوا أشد منه على الدين طعناً . ثم كانوا مع ذلك ينزعون إلى الإلحاد نزعة صريحة ، كما أن منهم من كان يطلب إصلاح دستور الحكم . ولم ينس البرلمان كذلك أن روح العصر لم تكن من الحرص على النظام والدين بمقدار ترى معه قرار القبض بعين الرضا والطمأنينة . لذلك ذهب يتلمس المعاذير لقراره . فلم يجد إلا أن روسو خالف مألوف أدباء ذلك العصر وكتابه بأن أمضى كتبه . فذكر فى أسباب حكمه ما نصه :

« وبما أن مؤلف هذا الكتاب لم يخش أن يصرح باسمه فقد وجب الإسراع فى مقاضاته .

« وبما أنه قد عرّف عن نفسه فيهم العدالة أن تتدخل فتجعل للناس مثلا من المؤلف ومن يثبت اشتراكهم فى طبع هذا الكتاب أو توزيعه » .

قال مسيو موجرا فى تبرير هذا التصرف :

« لا شك أنه نفى فى سنة ١٧٦٢ من فرنسا وجنيف وبرن . ولكن ذلك كان أمراً عالقاً بأخلاق العصر . فهل تسمى مطاردة ما قانوناً عامًّا . وأى رجل من رجال الأدب لم يكن معرضاً لمثل هذا الخطر ولما هو أقسى منه إذا كتب مثل هذه الكتب . ولو أنه أراد أن يفر من تشريع العصر فلم لم يقلد كل أولئك الكتاب العظماء الذين كانوا يكتفون بنشر كتبهم من غير وضع أسمائهم عليها . وهل لإنسان أن يشكو من المطاردة إذا كان فى مقدوره تجنبها ثم هو مع ذلك يندفع إليها » .

وهذا الرأى هو كذلك رأى أومر جولى وهو رأى لا ينفر منه فاجيه Faguet ولا جول لمتر Jules Lemaitre . ولا تحسب رجال القضاء فى أى عصر ينفرون لأن القضاء يطبق القانون الذى يحتوى قواعد العدالة كما يفهمها المجموع لا كما يفهمها الخاصة وأولوا العلم . والمجموع هو القوة التى باسمها ينفذ القانون وأحكام القضاء ، فيجب أن تكون الأحكام وأن يكون القانون فى متناول

فهمها . فأما الخاصة وأما أولوا العلم فيجب أن يطمئنوا إلى حظهم من التعمة بالسعادة الداخلية التى يحسونها ولا يشعر بها غيرهم ، ولذلك لا يقدرها ولا يقيم لها من الوزن إلا بمقدار ما يكون لها من أثر براق فى الخارج .

أصدر برلمان باريس حكمه ومن رجاله من يود ألا ينفذ وألا يقبض على روسو ، لأن هذا القرار صدر ضد أجنبى وكانت عليه مطاعن شكلية شتى . ثم إن ما كان رجال الحكم يخشونه من أن يجر القبض على روسو إلى التحقيق مع دوق ودوقة لكسمبرج ومع المسيو مالرب ومع أمثالهم من ذوى السلطان فى ذلك العصر جعلهم جميعاً يمهدون لروسو وسيلة الفرار ويطمئنون تمام الطمأنينة لفراره على نحو ما مر بك فى الفصل التاسع من هذا الكتاب .

هذا ، وأما منشور أسقف باريس فلم يعن بالشئون الشكلية ولم يتأثر بما لجماعة اللوكسمبرج ولمسيو مالرب بالكتاب من صلة . وما للأسقف ولهذه الشئون والصلات ، ومنشوره لا يتعدى الطعن على روسو وتفنيد آرائه ولا يقصد لغير المحافظة على إيمان الناس بسلطان الكنيسة وتعاليمها بعد ما حاول روسو أن يضع نظاماً للتربية وقاعدة للعقيدة غير قواعد التربية وأسس العقيدة التى وضعها رجال الدين ، وبعد ما استعان فى محاولته هذه بكل ما لديه من معارف، وبما أوتى من بلاغة وسحـــر بيان . فإذا ترك وشأنه صح أن تنمو فكرته وتجد من الناس أنصاراً لها وعاملين على نشرها . وفى هذا ما فيه من التأثير على سلطان الكنيسة وفى مصالح رجالها . والناس ، فى متعارف الحياة ، لا يحفزهم شىء للنضال كالخوف على مصالحهم . فأما الذين يدافعون عن الحق لأنه الحق ويرضون ضنك العيش وسوء الحال حرصا على سؤدده وانتصاره فأولئك هم المختارون الذين أسبغت عليهم الطبيعة من المزايا ما يهون عليهم شهوة الحاضر ومتاعه ويجعل منهم جنود الحقيقة الخالدة .

انبرى إذن أسقف باريس بمنشوره للرد على روسو . والحق أنه دل به على قوة بيان وروح جدلية جديرة بالإعجاب . ولو أنك وقفت عند قراءته من غير أن تقرن فى نفسك رد روسو عليه لما وسعك إلا أن تتهم روسو بالمروق وبالإلحاد . لكن صاحب دين الطبيعة كان ملهماً فى رده متفوقاً فى مناقشته إلى حد سما به إلى أقصى مما سما فى تعاليم قسيس السافوا ، وجعل أسقف باريس يبدو أمام النظر متعصباً ظالماً إلى حد كبير .

بدأ أسقف باريس رده بالطعن على فلسفة الإلحاد التى كانت فاشية فى ذلك العصر واعتبرها بعض أعلام الساعة التى أشار إليها القديس بولس . ثم وصف روسو وصفاً يستوقف النظر لما يظهر عليه من الدقة وحسن التحليل ، قال : « وهذا – الإلحاد – بنوع خاص هو ما يظهر أن بعضهم رمى إليه فى كتاب حديث عنوانه : أميل أو التربية . فقد نشأ فى حظيرة الخطيئة رجل ينتحل لغة الفلاسفة من غير أن يكون فيلسوفاً حقاً . إنما هو ذهن أفعم من المعلومات بجم لم ينره ، وبعث بالظلمات إلى أذهان أخرى ، وطبع مولع بغرائب الآراء وطرائق السير فى الحياة جمع بين بساطة الخلق وترف الفكر وبين الشغف بقواعد الأقدمين وشهوة إقامة المحدثات وبين خفية العزلة والرغبة فى أن يعرفه الناس جميعاً . رأى يناهض العلوم التى يتعهدها ، ويقرر كمال الإنجيل ثم يهدمه من أصوله ، ويصف جمال الفضائل ثم يمحوها من نفوس قرائه . وأقام نفسه مهذباً للنوع الإنسانى كى يضله ، ومرشداً عاماً ليغوى الناس جميعاً ، وهادى العصر ليفسد عليه أمره . ففى رسالته عن التفاوت نزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان . ودس فى كتاب آخر سموم الشهوة زاعماً أنه يحاربها . واستبد فى هذا الكتاب ، كتاب التربية ، بسنى الإنسان الأولى ليقيم سلطان الإلحاد » .

بعد هذا التصدير الذى قدم به الأسقف روسو إلى القراء بهذه الصورة التى تبدو كأنها الحقيقة والتى لخصت فى أسطر قلائل مطاعن كتاب العصر على مؤلف كتاب التربية وعلى رسائله وكتبه جميعاً انتقل بمنشوره إلى كتاب التربية أو إن شئت فقل إلى تعاليم قسيس السافوا ، فهى المقصودة بالذات عنده وعند برلمان باريس وعند غيرهم من القساوسة والحكومات . وأما عن أن هذه التعاليم صادرة من بروتستانتى وقائمة على قواعد هذا المذهب من مذاهب المسيحية ، فقد تجاهل الأسقف الأمر ونظر إلى ما خطته يد روسو بعين كاثوليكية بحتة . ولكنه كان مع ذلك حازماً كيساً فقد أراد أن يظهر روسو خارجاً على المسيحية ومذاهبها جميعاً منكراً للرسالة وللأديان كلها عاملا على ترويج الإلحاد مع ادعاء الإيمان والتدين مخفقاً فى دعوته هذه إخفاقاً ظاهراً ، فقال : « على أن مؤلف أميل برغم عدم اعترافه بأى دين من الأديان يدل من غير قصد على السبيل التى تؤدى إلى الدين الحق . فقد قال : نحن الذين لا يريدون التحكم ولا يريدون أن يعلموا أميل شيئاً لا يفهمه من تلقاء نفسه حيثما

وجد من بقاع الأرض – ترانا فى أى دين ننشئ تلميذ الطبيعة وبأى مذهب نلحقه . . إنا لن نلحقه بهذه ولا بتلك وإنما نحن نصَل به إلى مقام يمكنه من اختيار أيها أرشد إلى خير حكم للعقل . . ولقد تم بفضل الله هذا الغرض . ولو أن المؤلف وصل بتلميذه إلى مقام يتمكن معه من أن يختار من بين الأديان جميعاً ذلك الذى يهدى إليه خير حكم للعقل ، إذن لكان قد أعده حتماً لاختيار قواعد المسيحية . فإن النور الطبيعى يهدى إلى النور الإنجيلى ، والدين المسيحى هو لا شك دين العقل « وإن شئت فالأسقف يقول إن المسيحية دين الفطرة » .

مجهود روسو إذن ضائع ودعوته للخروج على قواعد العصر ثورة طائشة لا نتيجة ولا أثر لها . فما دامت تعاليمه وما دامت قيامته فى وجه الدين ومساعيه لتربية الطفل تربية جديدة لن تخلق خلقاً جديداً ولن تجعل الناس إلا أكثر حرصاً على المسيحية وتمسكاً بها ، فمن الحمق اتباعه ، ومن الجريمة عدم الوقوف فى وجهه .

وأبلغ دليل على عبثه وعدم إنتاجه عقم حججه جميعاً فحجته فى فساد التعليم الدينى عقيمة ، وإنكاره المعجزات عقيم ، وشكه فى وحدانية الله عقيم وكل ما عرض له فى تعاليم قسيس السافوا عقيم . وإن شئت أن تعرف كيف كان ذلك فاستمع إلى هذه المقتطفات من منشور مسيو دوبومون وتمهل قليلا فى الحكم لها أو عليها حتى تقرأ مناقشة روسو إياها .

قال الأسقف دفاعاً عن التربية المسيحية :

« يقول مؤلف أميل أيضاً : كل طفل يؤمن بالله وثنيا كان أو هو يخلق الله على صورة الإنسان . ولو أن هذا الطفل كان وثنيًّا لآمن بآلهة عدة ولنسب الطبيعة الإلهية إلى أوهام غير مُحَسّة . ولو أنه كان « تصويرياً » لجعل للإله الحق ، حين اعترافه به ، جسداً . ولن يرضى الإنسان هذه أو تلك لطفل نشأ فى تعاليم المسيحية . ولو أن التربية الحالية كانت فاسدة من هذا الوجه لكان من فاحش الظلم أن ننسب إلى الدين ما ليس منه وما هو من خطأ الذين يسيئون تعليمه » .

وقال مناقشاً روسو فى أمر الخلق ووحدة الله :

« والمؤلف نفسه يأخذ بمبدأ الشك فى أمر الخلق ووحدة الله . فهو يضع على لسان الشخص الذى اتخذ منه أداته ، ما يأتى : أعرف أن العالم تصرفه إرادة قادرة حكيمة . ذلك أراه ، أو بالأحرى أشعر به ، وذلك يعنينى علمه . ولكن هذا

العالم أخالد هو أم مخلوق . وهل للأشياء أصل واحد . وهل لها أصلان أو أكثر . وما هى طبائعها . ذلك ما لا أعرفه وما لا يعنينى . . ولذلك أدر جانباً هذه المسائل التافهة التى قد تحرك أثرتى من غير أن يكون منها فائدة لسلوكى ، على أنها أسمى مما يدركه عقلى . فماذا يريد هذا المؤلف المجازف أن يقول . هو يعرف أن العالم تصرفه إرادة قادرة حكيمة . وهو يعترف بأن معرفة ذلك تعنيه . وهو مع ذلك يقول إنه لا يعلم إن كان للأشياء أصل واحد أو أكثر . ويزعم أن معرفة ذلك لا تعنيه . إذا كانت ثمة إرادة قادرة حكيمة هى التى تصرف العالم فهل يليق ألا تكون هى المبدأ الوحيد للأشياء . وهل يمكن أن يكون العلم بأحد الأمرين أجل خطراً من العلم بالأمر الآخر . ما هذه العبارة المتناقضة . وهو يزعم أنه لا يعلم طبيعة الله ثم لا يلبث أن يقر بأن هذا الموجود الأسمى له الذكاء والقدرة والإرادة والطيبة . أليست هذه الفكرة عن الطبيعة الإلهية . . ووحدة الله تبدو له مسألة تافهة تسمو على عقله ! كأن تعدد الآلهة ليس سخفاً أعظم من كل سخف » .

ولقد شعر روسو أن حقيقة التنزيل المسيحى ثابتة بالوقائع . ولما كانت المعجزات بعض الأدلة الأساسية على التنزيل وكانت هذه المعجزات قد بلغتنا عن طريق التواتر ، صاح عجباً : شهادات رجال دائماً ، رجال ينقلون ما نقله رجال غيرهم ، ألا ما أكثر الرجال بينى وبين الله ! !

قال الأسقف :

« ولكن . . بأية وسيلة أخرى غير شهادات الرجال عرف المؤلف إسبرطة وأثينا وروما . وهى التى يتغنى كثيراً وعن ثقة بقوانينها وأخلاقها وأبطالها . كم من الرجال بينه وبين الحوادث التى تمس تأسيس هذه الجمهوريات القديمة وما أصابها . وكم من الرجال بينه وبين المؤرخين الذين احتفظوا بذكر هذه الحوادث . فشكه هنا ليس قائماً إذن إلا على ما يمليه عليه إلحاده » .

ثم انتقل الأسقف من الكلام عن الله وعن وحدانيته إلى ما تعرض به روسو للنظام القائم . فقد قال روسو فى التربية ما سبق إليه فى الكتب الأخرى من أن الشعوب تتكون من سواد الناس والعاملين بينهم ، وإنك لو انتزعت الملوك من بينهم لما شعر بانتزاعهم أحد . لكن المجموع يضحى دائماً على مذبح فائدة العدد الأقل . والمصلحة العامة تضحى للمصلحة الخاصة . وهذا العدد الأقل لا يتغنى

باسم العدل والنظام إلا لفائدته وعلى حساب المجموع . كذلك يقول روسو . وقد رد عليه الأسقف بما يأتى :

« وكذلك يتهجم الإلحاد لانتقاد مقاصد من تحكم الملوك بأمره ، ويبتهج بتسميم قواعد السعادة العامة بما يوسوس به من قواعد لا نتيجة لها إلا الفوضى وما تجره ورائها من شقاء وتعس . أما الدين فيأمر بخشية الله وباحترام الملك . . وبأن يخضع كل إنسان لأولى الأمر . فمن الله تستمد كل سلطة . هو الذى أنشأها فى الأرض جميعاً فمن قاومها قاوم أمر الله فحقت عليه لذلك لعنته » .

ويرتب الأسقف على ذلك كله وجوب البدء بتربية الطفل من أول حياته تربية دينية خالصة .

وقد تناول منشور الأسقف مسائل أخرى كخطيئة آدم وما إليها من شئون الدين مما يطول شرحه وليس هذا مقام عرضه .

أذيع منشور أسقف باريس فى ٢٠ أغسطس سنة ١٧٦٢ ، وكان روسو يومئذ مقيماً بموتييه ترافير من أعمال نيو شاتل . وكانت المطاعن لا تفتأ توجه إليه من خصومه فى نشرات مطبوعة وفى نشرات غير مطبوعة . لكنه لم يكترث لها وفكر فى الابتعاد عن الأدب ومنازعاته . أما منشور الأسقف فحركه ليمسك القلم من جديد . قال :

« اعتقدت أن من حقى على نفسى أن أجيب . وكنت أستطيع هذه الإجابة من غير مساس بكرامتى . فقد كانت هذه المسألة مشابهة جد المشابهة لمسألة ملك بولونيا . وأنا ما أحببت قط المجادلات العنيفة على طريقة فولتير . ولست أعرف القتال إلا فى كرامة ، لذلك أريد دائماً من مهاجمى ألا يدنس ضرباتى كى أنزل حتى للدفاع عن نفسى . ثم إنى ما شككت فى أن هذا المنشور كان من صنع اليسوعيين وبرغم أنهم كانوا يوم ظهوره بائسين فقد عرفت فيه مذهبهم : مذهب القضاء على البائسين . وقد استطعت من أجل ذلك أن أسير أنا أيضاً على مذهبى القديم فأبجل المؤلف وأنسف المؤلَف . وأحسبنى بلغت فيما فعلت من ذلك حظاً من النجاح » .

ونحسبه نحن أيضاً قد بلغ فى رده هذا حظاً من النجاح . بل نحسبه قد وفق إلى كل النجاح . وهذا جول لمتر على ما كان من حنقه على روسو لم ينكر عليه

أن خطابه إلى الأسقف « كان آية فى الجدل وبدعة من بدائع المناقشة الدقيقة القوية المؤثرة البليغة » . فقد سلك روسو فيه مسلكاً جمع بين الكياسة والحزم . بدأه بالتوجع والشكوى ، ثم أظهر عظيم احترامه للأسقف وإجلاله إياه ، ثم ناقشه مناقشة غاية فى المتانة انتهى منها إلى أن المنشور ظالم مشبع بمعانى القسوة والانتقام والتعصب بعيد كل البعد عن الحق الذى يجب أن يكون غاية رجال الدين بنوع خاص .

* * *

يستغرق هذا الرد مائتى صفحة وعنوانه « من جان جاك روسو مولى جنيف إلى كرستوف دبومون أسقف باريس ودوق سان كلو ومن أشراف فرنسا وحامل وسام الروح القدس ومراقب السوربون إلخ . . وأوله اعتذار من روسو إلى الأسقف عن رده عليه . . « فلو أنك لم تطعن إلا على كتابى لتركتك تقول ما شئت . لكنك طعنت كذلك على شخصى . وكلما كنت أنت أعظم بين الناس سلطانا كنت أنا أقل حلا من السكوت عما أردت تدنيسى » .

ثم تعرض لوصف حاله وما لقيه من الناس . واستطرد من ذلك إلى الكلام عن قرار برلمان باريس وعن مطاردته من بلد إلى بلد ومن دار إلى دار ، وعن قرار حكومة وطنه جنيف ألا ينزل فيها . وتلك صحيفة من صحفه الخالدة بلاغة وقوة ومتانة . وهى كمقدمة للرد بديعة فى تهيئتها ذهن القارئ للعطف على صاحبها ومحبته . قال :

« وليس على مولى جنيف يد لقضاة ظالمين معتدين اتهم عندهم باطلا فقرروا القبض عليه من غير أن يستدعوه . وما دام لم يدع للحضور فليس ما يضطره إليه . ثم لجأوا إلى القوة ضده فتحاشى القوة وغادر تلك الأرض المضيافة التى يتهافت أهلها على ظلم الضعيف ويقيد فيها الأجنبى بالأغلال من غير أن يسمع قوله ومن غير أن يعلم إن كان العمل الذى اتهم به معاقباً عليه وإن كان قد اجترحه .

« ترك عزلته العزيزة عليه آسفاً ، وفر من أصدقائه ولم يكن له غيرهم نعيماً قيماً ، واحتمل على ضعفه رحلة طويلة خيل إليه فى نهايتها أنه يتنفس فى أرض

الحرية ، ووصل إلى وطنه الذى طالما فاخر به وأعزه وأكرمه ، وصل وكله الأمل أن يجد فى مقابلة أهله ما يهون عليه مصابه . . ماذا ترانى سأقول . ينقبض قلبى وترتجف يدى ويسقط منها قلمى . . يجب على أن أسكت فلا أحتذى جريمة شام . . ألا ليتنى أستطيع أن أسيغ فى خفية أشد آلامى مضاضة ومرارة .

« ولم كل هذا . أنا لا أسأل عن سببه وإنما أسأل عن الدافع إليه . إنهم يجترئون على رمي بالإلحاد غير ذاكرين أن الكتاب الذى يبحثون فيه عن هذه التهمة موجود بين يدى الناس جميعاً . ألا ما أكثر ما تجود به نفوسهم لو أنهم أتيح لهم إعدام هذا السند ليدعوا بعد ذلك أنه يحتوى كل ما زعموه فيه . لكنه سيبقى برغم ما يصنعون . وسيرى الخلف عند البحث فيه عما يعزى إلى مؤلفه من الآثام أن ليس فى أغلاط هذا المؤلف ذاتها إلا خطأ صديق من أصدقاء الفضيلة .

« وسأتجنب التحدث عن المعاصرين فما أريد بأحد ضرًّا . لكن الملحد سبينوزا كان يعلم الناس مذهبه مطمئنًّا ، وكان لا يعوقه عن طبع كتبه عائق ، وكانت هذه الكتب يتجر فيها علناً . وحضر إلى فرنسا فاستقبل استقبالا حسناً ، وكانت الممالك كلها مفتوحة أمامه ، وكان يجد الأمن بل الحماية فى كل مكان ، وكان يحظى من الأمراء بكل إجلال ، وكانوا يعرضون عليه منابر الدرس . فعاش راضياً ومات مرضيًّا بل موقراً . أما اليوم وفى هذا العصر الذى يزدهى بأنه عصر الفلسفة والحكمة والإنسانية فلأن رجلا عرض فى احتياط وباحترام وبدافع من محبة بنى الإنسان بعض شكوك أملى بها مجد الموجود الأسمى ترى هذا المدافع عن دين الله محروماً من الماء والدفء فى كل أوربا مهيناً منبوذاً يطرد من مملكة إلى مملكة ومن ملجأ إلى ملجأ من غير رعاية لفقره ولا إشفاق على ما يعانى من أمراضه ويطارد بقسوة لم ير مثلها أثيم ولا تجوز إلا عند الهمج حتى لو أنها عومل بها رجل وهو فى قوته وصحته . ولكى يستطيع البقاء مطمئنًّا بين الجبال يجب لذلك حزم مجيد كبير وعناية أمير مستنير ، ولو أنه ظل تحت رحمة مطارديه أول ما أصاب الهذيان تلك الحكومات لقضى بقية أيامه التعسة فى الأغلال ولغلب أن يلفظ نفسه الأخير فى سعير العذاب .

« ونجا من أيدى الجلادين لتتلقاه أيدى القساوسة . ولست أذكر هذا على أنه عجيب . ولكن رجلا ذا فضل وأسقفاً عظيماً له من شرف النفس مثل ما له

من شرف المولد أباح جبنهم وكان حقاً عليه أن يصده ، ولم يخجل من أن يسحق مظلوماً طحنه الهم فى حين أوجب عليه مركزه كقسيس التألم لحظ كل مظلوم . ثم إذا سائر رجال هذا الأسقف يسارعون يريدون سحق عدو يحسبونه قد قضى . ويشترك الأكابر والأصاغر منهم فى هذا حتى لترى أحقر واعظ وأحط ملقن يسعى لينال مجد القضاء على هذا العدو بأن يضربه بقدمه الضربة الأخيرة .

« وهل تراك تظن أحداً يحسب أنك كنت لكتابى أقل عداوة لو أن البرلمان لم يعرض له . قد يكون لبعضهم أن يظن هذا أو أن يقوله . فأما أنت ولا طاقة لضميرك باحتمال الكذب فلن تقوله . فلقد انتشر كتابى عن التفاوت فى أسقفيتك ولم تذع عنه منشوراً . وانتشرت هلويز الجديدة فى أسقفيتك ولم تذع عنها منشوراً . ولقد قرأت هذه الكتب حتى حكمت عليها . مع ذلك فكلها تجرى فيها مبادئ واحدة ، وطريقة التفكير فيها جميعاً ليست أقل خفاء . وإذا كان المقام فى كل منها لم يسمح بالتوسع فى عرض الآراء فقد كسبت هذه الآراء بذلك من القوة بقدر ما فقدته من تفصيل ، وفيها يرى الإنسان عقيدة المؤلف أوضح عبارة وأقل تورياً مما هى فى قسيس السافوا . فمالك لم تقل يومئذ شيئاً . أو كان قطيعك يا مولاى أقل كرامة يومئذ عليك ، وهل كان أقل قراءة لكتبى أو أقل لها ذوقا ، أم كان أقل عرضة للخطأ . كلا . لكنك لم يكن أمامك يومئذ من اليسوعيين من تحاربهم ، ولم يحطنى الخونة يومئذ بأحابيلهم . ولم تكن كلمة أولاء جميعاً قد عرفت . فلما عرفت كان الجمهور قد اطمأن إلى ما فى كتبى ، وكان وقت إحداث الضجة قد انقضى . فرأيتم أن تتمهلوا وتؤجلوا وأن تنتظروا الفرصة وترتقبوها . ثم انتهزتموها بما طبع عليه المتعصبون من تهييج . فلم يكن فى أفواهكم إلا حديث الأغلال والنيران وجعلتم من كتابى صيحة الحرب على الفوضى والنفير العام ضد الإلحاد ، ومن المؤلف مريداً يجب سحقه ويدهش الناس لبقائه كل هذا الزمن على قيد الحياة . بإزاء هذا التهيج العام خلجت أنت أن تظل صامتا وفضلت اجتراح عمل من أعمال القسوة على أن ترمى بضعف حماستك للدين ، وأن تخدم أعداءك لتسكتهم على أن ترد مطاعنهم عليك . هذا يا مولاى هو الدافع الصحيح لمنشورك وأنت به أعلم . وذلك على ما أرى تضافرٌ بين وقائع غريبة تجعل مآلى عجبا » .

بعد هذا العرض لحاله جعل روسو يفند حجج أسقف باريس حجة بعد حجة

ولعله لم يجئ بجديد فى هذه الحجج غير ماجاء فى الهلويزوفى أميل . فقد أعاد مبدأه العزيز عليه : مبدأ الطيبة الطبيعية . ورتب عليه من النتائج ما رتب عليه فى سائر كتبه . لكن طريقته فى الجدل والمناقشة بالغة فى هذا الخطاب أسمى حدود الدقة والإبداع . وإلى القارئ مثلا من جدله ردا على قول الأسقف : « هو يزعم أنه لا يعلم ما طبيعة الله ثم لا يلبث أن يقر بأن هذا الموجود الأسمى له الذكاء والمقدرة والإرادة الطيبة . . أليست هذه فكرة عن الطبيعة الإلهية » ؛ وعلى قوله « ووحدة الله تبدو له مسألة تافهة تسمو على عقله كأنما تعدد الآلهة ليس ليس سخفاً أعظم من كل سخف » .

قال روسو رداً على اعتراض القسيس عن الطبيعة الآلهية :

« لله الذكاء ، ولكن ما ذكاؤه ؟ فذكاء الإنسان فى التفكير . أما الذكاء الأقدس ففى غير حاجة إلى أن يفكر . ليست لتفكيره مقدمات ولا نتائج ولا فروض . إنما هو ذكاء ملهم يرى ما كان وما يكون ويرى الحقائق كلها فكرة واحدة كما يرى الأماكن كلها نقطة واحدة والأزمنة لحظة واحدة . وللقوة الإنسانية وسائل تعمل بها ، أما القوة الإلهية فتعمل بنفسها . والله يقدر لأنه يريد ، فإرادته قدرته . والله خير لا ريب . وخير الإنسان حبه لأمثاله . أما الخير الذى لله فى النظام الذى يمسك به الكائنات ويربط به كل جزء منها مع كلها . والله لا ريب عادل ، وذلك بعض آثار خيره . وظلم الإنسان من عمل الإنسان لا من عمل الله . واضطراب الروح الذى يجنح الفلاسفة من طريقه لإنكار قدرة الله يزيد هذه القدرة أمامى ظهوراً ووضوحاً . وعدل الإنسان فى أن يرد إلى كل ذى حق حقه ، وعدل الله فى أن يحاسب كلا عما وهبه .

« هذه صفات استنبطتها تباعاً من طريق منطق العقل وتتبع النتائج من غير أن يكون لها فى نفسى معنى مطلق . فأنا أؤكدها ولا أدركها وذلك يعدل أنى لا أؤكد شيئاً . فعبثاً أقول لنفسى ذلك هو الله . وعبثاً أ لمسه وأثبته فى فؤادى فذلك لا يزيدنى علماً لم كان الله كذلك .

« ثم إنى كلما حاولت فهم كنهه كنت لهذا الكنه أقل تصوراً . وكفانى ذلك به إيمانا . فإنى كلما كنت له أقل تصوراً كنت به أشد تعلقاً وله أكثر عبادة . أمامه أعنو قائلا : وجودى منك يا كائن الكائنات وكلما أدمت الفكرة

فيك سموت بنفسى إلى أصلها . وفنائى فيك خير ما يعمله عقلى . فإنما بهر فؤادى وقوة ضعفى أن تأخذ بلبى عظمتك » .

وقال رداً على التوحيد والتعدد :

« ومن ذا قال بتعدد الآلهة . ويحى عليك يا سيدى الأسقف . ألا لو أنك أردت بى أن أقول أمثال هذه الحماقات لما كلفت نفسك ولا ريب مئونة إذاعة منشورك ضدى .

« أنا لا أعلم لم كان ما هو كائن وكيف كان . وكثيرون غيرى ممن يوهمون معرفته ليسوا أكثر به منى علماً . على أنى لا أرى غير سبب واحد هو مبدأ كل حركة ، ذلك بأن كل ما فى الوجود ظاهر تعاونه فى الاتجاه إلى غايات متفقة . لذلك أعرف إرادة واحدة عليا بيدها تصريف كل شىء . هذه القوة وتلك الإرادة أعزوهما إلى كائن واحد لما هما عليه من تمام الاتفاق ، ولأن تصورهما فى واحد خير منهما فى اثنين . فالتعدد لا يجوز لغير سبب ولا علة . وإن ما نرى من شر ليس شراً مطلقاً وهو لا يحارب الخير مباشرة بل يتعاون وإياه لتمام نظام العالم » .

وبعد هاتين النقطتين الأساسيتين فى مذهب روسو عن الديانة الطبيعية أراد أن يبرر نشره تعاليم قسيس السافوا . ومن هذا التبرير يرى القارئ أن روسو إنما كان يقصد إلى تأييد البروتستانتية ويذهب إلى أكثر من تبريرها بالسعى لتوسيع أفقها وتدعيم نظرية حق كل فرد فى البحث الحر . وهو فى هذا مبدع إبداعه فى سائر ما احتواه هذا الرد على أسقف باريس . قال :

« وإنى لذاكر لك السبب الذى حملنى على نشر تعاليم القسيس . لماذا أراها على الرغم من كل ما أثير حولها من ضجة خير كتاب أخرج للناس فى العصر الذى نشرتها فيه . ولن تغير النيران ولن تغير القرارات من لغتى ولن يجعلنى اللاهوتيون كاذباً إذ يأمروننى بالتواضع ، ولن يدفعنى الفلاسفة إلى إعلان الإلحاد باتهامهم إياى بالنفاق . بل سأعلن دينى لأن لى ديناً . وسأعلنه عالى الصوت لأن لدى شجاعة إعلانه . ولشد ما كنت أرجو أن تكون هذه الشجاعة للناس جميعاً حرصاً على فائدة بنى الإنسان .

« أنا يا مولاى مسيحى ، ومسيحى بإخلاص على مذهب الإنجيل . وأنا مسيحى لا كتلميذ للقساوسة ولكن كتلميذ ليسوع المسيح ، وأستاذى قل تدقيقه

فى النصوص وكثر تنبيهه للواجبات . وقواعد الإيمان التى أمر بها أقل ما أمر من مؤاتاة الخير وصالح العمل وهو لم يأمرنا أن نؤمن إلا بما وجب الإيمان به لنكون أخياراً . ولما لخص سنن الأنبياء لخصها فى أعمال الفضل أكثر مما لخصها فى أبواب الإيمان . وقد قال بنفسه ثم قال قديسوه إن من أحب أخاه قام بما فرض عليه » .

ثم أضاف :

« لم يتح لى دائماً أن أسعد بالعيش منفرداً فقد خالطت رجالا من كل صنف ورأيت أناساً من كل الأحزاب ومؤمنين من كل المذاهب ومفكرين بأنفسهم من كل الطوائف ، ورأيت عظماء وأصاغر ماجنين وفلاسفة ، وكان لى أصدقاء حميمون كما كان لى من هم أقل من هؤلاء فى مراتب الصداقة وأحاط بى جواسيس ومسيئون . وفى العالم كثيرون يكرهوننى بسبب ما ألحقوه بى من أذى . هؤلاء جميعاً أدعوهم ليعلنوا على الملأ ما يعرفونه من عقيدتى فى دينى . هل رأونى يوماً غير ما أنا سواء فى تجارة الحياة أو فى الصداقة المرفوعة الكلمة وحين لهو الحديث على الطعام أو فى السر والنجوى . هل رأوا حججهم أو سخرياتهم زعزعت من إيمانى لحظة حين أرادوا المناقشة أو السخرية . هل تبينوا يوماً أنى تغيرت عواطفى أو بدأت أخفى فى دخيلة قلبى ما لا أظهر الجمهور عليه . هل علموا على يوماً شبهة كذلك أو نفاقاً . ليقولوا ما يعرفون ويعلنوه ليكشفوا سترى . أنا بذلك راض بل أنا أرجوهم أن يفعلوا وأعفيهم مما توجبه الصداقة من كتمان . فليرفعوا الصوت لا بما يريدوننى أن أكون ولكن بما توحيه ضمائرهم عنى . إنى أئتمنهم على شرفى غير خائف ، وأعد بأنى لا أعترض منهم أحداً » .

هو إذن مؤمن ثابت الإيمان . لم تزعزع عواطف الإلحاد التى كانت ثائرة يومئذ عقيدته ولم تدخل سخريات فولتير ومنطق مدرسته شيئاً من الشك إلى نفسه . وهو يرى كلمة السيد المسيح على ما يفهمها خير صورة تعبر عن إيمانه . لكنه لا يقر لذلك بأن السيد المسيح رسول من عند الله وأن أقر له وللأنبياء طرًّا بالعظمة والقداسة . وهو فى هذا يخالف فولتير ومدرسته ويناصبه العداوة ؛ ذلك بأن فولتير نظر إلى الأديان على ما كانت فى عصره بعد ما أدخل إليها القساوسة ورجال الدين من الخرافات ما زعموه جزءاً منها لا ينجزئ وشطراً منها غير منفصل ، وبعد ما نسبوا هذه الخرافات إلى الرسل الذين نشروا دعوة الله فى الناس . وعلى أساس هذه

النظرة جعل فولتير يبين ما فى التعاليم التى ينشرها رجال الدين من متناقضات وسخافات ويلقى عبء مسئولية ذلك على أصحابها الأولين . ولذلك سمى الرسل دجالين وكذبة ونسب إليهم ما يستطيع رجل أن ينسبه لرجل من التهم ، ورأى فيهم أفاقين ساقتهم مطامعهم فى الدنيا وفى حكم الناس إلى ادعاء الرسالة . أما روسو فيفهم الإيمان ويفهم لذلك عظمة الذين أقروه فى الأرض ودعوا الناس إليه ، هو يفهمه لأنه يحسه فى قلبه ويراه فى كل ما حوله . يرى الله فى الأرض والسماء ويراه فى السراء والضراء ولا يزعزع من إيمانه به أنه لا يدرك مداه وكنهه ، بل يزيده ذلك إمعاناً فى التفكير فيه وفى تقديسه . وعلى شعوره يقيس شعور الأنبياء والرسل ويرى لهم العذر عما قالوا من أنه أوحى إليهم من عند الله . فكذلك كانت روح عصرهم . ثم إنهم رأوا هذه الحقائق العليا التى فتح عليهم بإدراكها أسمى مما يصل إليه عقل الإنسان عادة ، فلم يخالجهم شك فى أن القوة المدركة المدبرة للكون والتى امتلأت قلوبهم إيماناً بها – مثلما امتلأ قلب روسو – هى التى أوحت إليهم بهذه الحقائق وكشفت عن عيونهم غشاء الباطل فرأوا النور الذى لم يره غيرهم ، وصار لزاماً عليهم ممن أضاء لهم بهذا النور أن ينشروه فى الأرض وأن يدخلوه إلى نفوس من أخذتهم الحياة القصيرة ببهرجها الخداع وهم لذلك يستحقون كل احترام وتبجيل . وذلك ما دعا إليه روسو حين قال :

« أحترم جميع الذين وضعوا الأديان والمذاهب لقد كان لهم جميعاً نبوغ عظيم وفضائل كبرى . وذلك محترم أبداً » ولقد قالوا إنهم رسل من عند الله . وذلك ممكن أن يكون وألا يكون . والجماعة لا تستطيع أن تتفق فى الحكم عليه أن ليست أدلته فى متناول الكل على سواء . على أنهم لو لم يكونوا رسلا فليس ذلك بداع إلى اتهامهم فى خفة بأنهم كذبة دجالون . فمن يدرى إلى أى حد يصل التفكير المستمر فى الإلهيات والتناهى فى الحرص على الفضيلة من أرواحهم حتى يفسد عليها المنطق ونظامه ويجعلها تتعلق بشىء من أفكار العامة ، فعند التناهى فى السمو يدور الرأس ولا يرى الإنسان الأشياء على طبائعها » .

ولكن ما قول روسو فى المعجزات المثبتة للرسالة . لقد صاغ اعتراضه على ثبوتها فى صيحته : « عجباً . شهادات رجال دائماً . رجال ينقلون إلىّ ما نقله رجال غيرهم . ألا ما أكثر الرجال بينى وبين الله » ، فرد الأسقف صيحته فى

عبارته هذه التى مرت بك : « ولكن . . بأية وسيلة أخرى غير شهادات الرجال عرف المؤلف إسبارطة وأثينا وروما وهى التى يتغنى كثيراً وعن ثقة بقوانينها وأخلاقها وأبطالها . كم بينه وبين الحوادث التى تمس تأسيس تلك الجمهوريات القديمة وما أصابها . . إلخ » ، فما دام روسو يقبل شهادات الرجال حجة على حوادث بينه وبينها زمان طويل فإنكاره المعجزات الثابتة بالتواتر عنت يبرر رمى الأسقف إياه بالإلحاد . لكن روسو لا يترك هذا الاعتراض من غير أن يدفعه بالقوة التى دفع بها غيره من الاعتراضات . قال :

« لو أن المسألة كانت أقل خطراً وكنت أنا لك يا مولاى أقل احتراماً لهيأت لى هذه الطريقة فى التدليل الفرصة لأثير مرح قرائى . ولكن حاشا الله أن أنسى اللهجة الواجبة للموضوع الذى أعالج وللرجل الذى أحدثه . ويكفينى ولو ثقل قولى أن أبين مبلغ خطئك .

« أرجوك أن تذكر أن من المعقول تماماً أن تثبت شهادات الناس ما صنع الناس وأن ليس لإثباته بغير ذلك سبيل . فلست أستطيع أن أعرف أن إسبارطة وروما كانتا إلا لأن مؤلفين عاصروهما خبرونا عنهما . ويجب أن يكون الوسطاء بينى وبين رجل عاش أو يعيش بعيداً عنى . ولكن أى حاجة إلى هؤلاء الوسطاء بينى وبين الله . وأى حاجة إلى أن يكون هؤلاء نائين نأياً يحتاجون معه إلى شهادة كثيرين غيرهم . وهل طبيعى وبسيط أن يبحث الله عن موسى ليكلم جان جاك روسو .

« ثم إن أحداً ليس مكلفاً أن يؤمن بوجود إسبارطة أو تحل عليه اللعنة . ولن يحرق أحد أو يخلد فى السعير لشكه فى أمرها . فكل حادث لسنا نحن له شهوداً لا يثبت إلا بالدليل المعنوى . وكل دليل معنوى يحتمل أن يكون راجحاً أو مرجوحاً إلخ .

« ولو أنى رأيت المعجزات بعينى لرفضت أن أؤمن بمذهب سخيف غير معقول يراد أن يدعم بها . وأهون على أن أصدق بالسحر من أن أرى كلمة الله فيما لا يصدقه العقل » .

إذن فحكم العقل وحده هو الذى يجب اتباعه . وكل ما خالف العقل لا قيمة له ولو نسب إلى الوحى أو الرسالة . على أنه لو اقتصرنا على ما ألهمه الرسل

لما وجدنا فيه كل هذا الذى أدخله القساوسة عليه – فى رأى روسو – من أوهام وترهات . وهل جاءت الأديان إلا هدى للناس من غير أن تمس تفاصيل حياتهم . وما للأديان وشئون الدنيا وهى إنما توجه الناس كافة إلى الخير وإلى المحبة على ما يفهمونها . وهذا ما يستطيع الناس أن يبلغوه لو أنهم لم يتقيدوا بما يتقيدون به اليوم من صور رسمها لهم القساوسة ومن أوضاع ابتدعوها لفائدتهم ثم صارت هى الدين فى نظرهم وصار ما كان الدين يأمر به فى المكان الثانى بالنسبة لها .

« وإذا صرف المرء النظر عن واجبات الإنسان واكتفى بالاشتغال بآراء القساوسة وشحنائهم التافهة أصبح لا يعنيه أن يسأل المسيحى إن كان يخشى الله وإنما يعنيه أن يسأله إن كان سنياً (أرثوذكسياً) . وكفاه أن يستمضيه نماذج عن مسائل لا جدوى لها وهى غالب الأمر غير مفهومة . فإذا وقع أفلح ولم يسأل بعد ذلك شيئاً ، وصار له أن يعيش كما يحلو له . ولم يعد سلوكه يهم أحداً ما دام قد سلّم بالمذهب . أى خير تجنى الجماعة من الدين الذى نزل إلى هذا الدرك . وما فائدته للناس وهو على هذه الحال . وإنما يقف يومئذ أثره عند إثارة المنازعات والقلق والحروب على مختلف صورها ، وأن يدفع الناس للتناحر حول الألفاظ ، وخير يومئذ ألا يكون دينٌ من دينٍ ذلك مدى شره . فلنحل دون تدهوره إلى هذا الدرك إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ولنكن يومئذ واثقين برغم الأغلال والنيران أن لنا على الإنسانية من أجل ذلك حقاً وكرامة » .

« وهب الناس سئموا هذه المعارك التى تمزق الإنسانية فاجتمعوا لإنهائها وللاتفاق على دين يكون دين الشعوب طراً . لا شك سيبدأ كل واحد منهم باقتراح دينه على أنه وحده الحق والمعقول والثابت أنه وحده المرضى من الله الصالح للناس . لكن عدم توازن براهينه فى هذا الباب مع اقتناعه – فى نظر أهل المذاهب الأخرى على الأقل – يجعل كل طائفة يقف رأيها عند أهلها فيتفق الكل ضدها . ذلك حق لا ريب فيه . وتسير المداولة على هذه الصورة فيقترح واحد ويرفض الآخرون . وليست هذه وسيلة الاتفاق . وقد يمكن بعد ضياع وقت غير قليل فى مداولات صبيانية أن يبحث الرجال ذوو الحكمة عن وسيلة للتوفيق فيقترحوا من أجل ذلك أن يبدأ بطرد رجال الدين من بين الجماعة . ولا يصعب عليهم أن يبينوا ضرورة هذه الخطوة الأولى ضرورة محتومة . فإذا تم هذا الأمر الصالح قالوا للناس : مالم تتفقوا على

مبدأ فلا سبيل بينكم إلى التفاهم . فقول أيكم لصاحبه إنك مخطئ لأنى مصيب حجة لم تقنع يوماً أحداً .

وبين روسو بعد ذلك أن الديانة الطبيعية التى وضحها فى تعاليم قسيس السافوا هى المبدأ والدين الذى يمكن أن يتفق المسيحى واليهودى والمسلم وكل ذى دين عليه . فهى نتيجة التفكير ليس غير . وهى لا تلزم أحداً أن يؤمن بما لا يستطيع عقله قبوله . وهى لذلك سند للبروتستانتية ودعوة إلى إطلاق حرية الفكر . وهذا ما جعل أسقف باريس وغيره من الكثالكة يطعنون عليها وينحون باللائمة على صاحبها ويعتبرونها خروجاً على قواعد الدين ويتهمون روسو من أجلها بالإلحاد . لكن العجيب أن هذه الدعوة لم تنل رضا الرؤساء البروتستانتيين فى جنيف مما دعاهم إلى إصدار أمر كالذى أصدرته الحكومة الكاثوليكية الفرنسية يحظر عليه الدخول إلى وطنه ، وعلة ذلك أن هؤلاء الرؤساء يرون فى نظرية روسو الدينية وفى نظرياته السياسية والاجتماعية ما يقضى بزوال امتيازهم على غيرهم من الطوائف وبانهيار سلطانهم وحقهم فى الحكم . وفى رأى كثيرين من الكتاب والمؤلفين أن الملوك والأشراف ورجال الدين فى الملل المختلفة لا يتحركون حركة للدفاع عن الدين مالم تكن مصالحهم مهددة أو مالم يرتجوا من وراء هذه الحركة فائدة لسلطانهم ومصالحهم . فأما الدين كعلاقة بين العبد وربه فلا يدخل لأحد منهم فى حساب . ولو أنك كشفت عن طواياهم لوجدتهم أكثر تذبذباً فى عقائدهم من سائر الطوائف .

وبعد أن فند روسو أقوال أسقف باريس ختم خطابه بهذه العبارة :

« ما أيسر ما تتحدثون أنتم الذين رفعتم إلى مقام الكرامة . فأنتم ، ولا تعرفون حقوقاً غير حقوقكم ولا قوانين غير ما تلزمون الناس به ، لا يكفيكم أن تعفوا أنفسكم من واجب العدالة بل ترون أنكم غير ملزمين كذلك بما توجبه العواطف الإنسانية . فأنتم تظلمون الضعيف فى كبرياء من غير أن يسألكم عن ظلمكم أحد . وإهانة الناس لا تكلفكم أكثر مما تكلفكم القسوة بهم . وأنتم تكسحوننا أمامكم كسح التراب كلما عنّت لكم أقل غاية أو مصلحة . فمنكم من يعدم أو يحرق ، ومنكم من يقذف ويطعن من غير حق ومن غير سبب ومن غير احتقار ، بل من غير غضب وبغير موجب إلا أن ذلك يوافق مصلحتكم ولأن البائس وجد فى طريقكم .

فإذا قذفتمونا بلا مبرر فليس مسموحاً لنا أن نرفع صوتاً بالشكوى . فإذا أثبتنا براءتنا وخطأكم اتهمنا بالخروج على موجب الاحترام .

« مولاى . لقد طعنت علىّ علناً ، وها قد أثبت لك أنك سببتنى . ولو أنك كنت رجلا من عامة الناس مثلى فاستطعت أن أخاصمك إلى قضاء عادل وحضرنا أمامه معاً أنا بكتابى وأنت بمنشورك لما كان ثمة ريبة فى اعتباره إياك مذنباً وحكمه عليه بالتعويض علنا بقدر ما كان الإثم علنا . ولكنك من صف يعفى صاحبه من أن يكون عادلا ولست أنا شيئاً . على أنك وأنت تعلم الإنجيل ووظيفتك أن تدل الناس على واجبهم تعرف الواجب عليك فى حالتنا هذه . ولقد قمت بواجبي ولم يبق لى ما أقول ولذلك أسكت .

وتفضل يا مولاى بقبول عظيم احترامى .

* * *

أتحسب هذا الرد البديع المقنع غير من نظر الحكومات إلى روسو ؟ وهل تحسبه بعد نشره إياه ظفر من العطف العام بما أتاح له بعض السكينة فى حياته ؟ . . كلا . بل بقيت متاعبه تزداد وتزيد عبء مرضه عليه ثقلا . وبقى مشرداً طريداً يتنقل من بلد إلى بلد ومن مملكة إلى مملكة مما ضاعف عقيدته المرضية بأن الناس جميعاً يناصبونه العداوة . وهل تحسب أن هذا الرد البديع المقنع أسكت خصومه عن مجادلته ومناقشته فى مبادئ دين الطبيعة . كلا . بل نشر النائب العام ترونشان بجنيف خطابات الريف التى رد عليها روسو بخطابات الجبل فازداد فيها سمواً وقوة وزادت سلطانه فى عالم الأدب رفعة وخلوداً .

على أن الجدل بين روسو وأسقف باريس هو كما قدمنا صفحة من صفحات الأدب البالغة غاية السمو دقة أسلوب ومتانة حوار وإبداعاً فى المناقشة . ولقد ظهر روسو فيها كما ظهر بعد ذلك فى خطابات الجبل وكما ظهر من قبل فى رده على دلبير محاوراً ماهراً يستطيع أن يتراجع إن شاء . لكنه فى رسالته إلى أسقف باريس وفى خطابات الجبل لم يتراجع قيد أنملة . ذلك بأنه كان يدافع عن إيمانه الثابت وعقيدته الراسخة . وفى سبيل هذا الإيمان احتمل على مرضه وعلى فقره مالم يحتمله غيره من ذوى الثروة الطائلة والجاه العريض والقوة والفتوة . وكثيراً ما صهر الألم النفوس فنقاها وعلا بها إلى سماوات لا تعرفها نفوس المترفين والسراة ومن حجبت

عنهم الطمأنينةَ مراقى الرفعةُ . ولئن دعا الناس الجاه والمال والسلطان سموًّا فما هو إلا سمو زائل ما يلبث أن يتبخر تبخر السحاب وأن ينهد إلى الأرض ويختلط بالتراب .

ولئن أنكر من دفعتهم مصالحهم إلى إنكار قوة رسالة روسو إلى أسقف باريس فقد أقبل أهل عصره من السواد الذين كانوا خاضعين لبطش الحاكمين وجبروتهم عليها أيما إقبال ، ثم كانت إبان الثورة الفرنسية ، وكانت كتاباته بعض إنجيل هذه الثورة ، ثم بقيت وستبقى أثراً خالداً من آثار التفكير الإنسانى .

obeikandl.com